بفكرة العلاقات والمقارنة ، فالكاتب فى تلك الحقبة التى انفتح فيها العالم العربى (الذى كان تحت سيطرة العثمانيين) على الغرب، كانت تدهشه القفزة التى حققها الغرب فى جوانب الحياة الحضارية والمدنية . وتبهره أيضا . ولاشك أنه يتساءل إن كان بإمكانه أن يرى وطنه يوماً على صورة تلك الأوطان الأوروبية الحديثة . بل يتساءل : كيف غاب عنَّا هذا العلم وتلك الحياة الراقية ؟ كيف غابت عنا أخبارُها . . وكيف غاب عنا ابتكارها . . وما الطريق لإنتاج مثلها ؟ . هنا يختلف التصور - فالمفكر يبحث عن الأسباب ويجتهد فى إيجاد الحلول ، وهو ما فعله الطهطاوى وعلى مبارك ؛ أما الأديب فيغريه ما يرى فيقف عند حدود الرصد ، ولا شك أن موقف المفكر المتأمل قائم على رصد الظاهرة ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد أى تحليلها .

وقد حدث شىء قريب من هذا بعد أن قطعنا شوطا بعيداً فى تطورنا الحضارى عندما وقف « لويس عوض » فى أواخر الثلاثينات من هذا القرن أمام ظاهرة غريبة لفتت اهتمامه وهو المثقف الواعى القارىء المسافر فى بعثة ليحصل على الدكتوراه . وقف مندهشاً دهشة طفل أو إنسان بدائى غير مصدق لظاهرة مترو الأنفاق العجيبة ، يطالب كل مصرى أن يسافر إلى لندن ليرى شيئا واحدا هو « مترو الأنفاق » الذى يتوه فيه الإنسان صعوداً